



عن شَكَلِ بن حُمَيْد - رضي الله عنه - قال: أتيتُ رسولَ الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت: يا رسولَ الله، علِّمني تعوُّدًا أتعوِّذُ به، فأخذ بكفي، وقال: «قل: اللهم، إني أعوذ بك من شرِّ سمعي، ومن شرِّ بصري، ومن شرِّ لساني، ومن شرِّ قلبي، ومن شرِّ هني (1) (2)».

فهذا الحديث الشريف يعلمنا الاهتمام بحواسنا، ويجعلنا نفكر في كيفية استعمال هذه الحواس التي وهبنا الله إياها، وكيف نعبد الله بها العبادة الصحيحة التي يَرْضَى عنها - سبحانه وتعالى.

يَتَعَبَّدُ الله بِتَرْكِ ما يَحْرُمُ استماعه من كلام أهل الكفر والبدع، والإلحاد والنفاق، إلّا لمصلحة الدين ممّا يُقصد به مُقارعتهم بالحُجَّة، واستظهار شِبْهِهم والشهادة عليهم، وترك استماع لهُو الحديث المتنوع الذي تقذف به اليهودية العالمية على أيدي عملائها، وهي أجهزة الإعلام من المعارف والحكايات والأقاصيص المأجنة، فلا يعتمد استماع سائر أدوات اللهو والغناء والتشبيب بالمحرم، وإذا ابتلي به فليصرف ذهنه عنها؛ وليشغله بذكر الله وما نزل من الحق؛ حتّى لا يدخل مسامعه، وكذلك لا يستمع إلى حديث شخص أو أشخاص وهم له كارهون، ولا إلى صوت النساء الأجنبية حين خشية الفتنة أو حصول التلذذ، كما يتعبد الله بترك سماع كل مكروه في الشريعة.

وَيَتَعَبَّدُ الله بِحِفْظِ بَصَرِهِ عن النَّظَرِ إلى ما حَرَّمَ الله في النساء والمردان، دون حاجة مُبيحة كَأخذ تقرير، أو شهادة، أو طبٍّ، أو خطبة؛ ويستعمله في النظر الواجب كالنظر في المصحف، وكتب العلم الواجب معرفتها، والنظر لتمييز الحلال من الحرام في الأعيان التي يريد أكلها، أو الاستمتاع بها، وأعيان الأمانات الواجب أداؤها لأربابها، والنظر في أنواع الأسلحة والأجهزة التي يريد استعمالها في الجهاد الصحيح؛ فإن النظر إليها واجب؛ للتأكد من صلاحيتها.

كما يَتَعَبَّدُ الله بالنظر المندوب، كالنظر في الكتب الدينية والأدبية الصحيحة التي تُفيد علمًا وأدبًا رفيعًا، وتزيد في إيمانه وعقله، والنظر في المصحف وإلى الكعبة، وإلى آيات الله الكونية الموطّدة لإيمانه ويقينه، بل قد يكون هذا من النظر الواجب.

ويكفُّ بَصَرَهُ عن النَّظَرِ إلى ما حَرَّمَهُ الله من العورات التي وراء الثياب أو وراء الأبواب بلا سبب مُبيح، وعمّا كرهه الله من فضول النظر أو المغريات التي قد تجذبه لما هو خطر، أو تجعله يزدري ما هو فيه من النعمة.

ويتعبد الله بالتذوق الواجب كتذوق ما يحتاج لسدِّ رمقه وإقامة صلبه من مطعوم ومشروب حلال، أو حرام عند الاضطرار إليه، ما يُعينه على تحصيله، وأكل ما يعينه على طاعة الله، ويقوّي بدنه للغضب في الله، والدِّفاع عن حدوده من المطعوم المُباح، فإنّه مندوب يتعبد الله به.

كما يَتَعَبَّدُ الله في ذوقه بِتَرْكِ ما حَرَّمَ الله من مأكول أو مشروب، وما كرهه كالمُتشابهات، وما زاد على الرّيِّ والشَّبَع، وطعام المرائين والمتبارين؛ أي: المتراهنين ونحوه، مما فيه تَهْمَةٌ أو إخلال بالمرءة.

ويتعبد الله بالشَّمِّ، فشمُّ ما يجب شمه للتمييز بين الحلال والحرام، والطيب والخبيث من الأعيان للتوقّي من حرمتها أو ضررها، وشمُّ ما يترتب على شمه تقرير ملك أو حكم، وشمُّ ما يندب شمه ما يقوّي على الطاعة ويقوّي الحواس، ويشرح الصدر للعلم والعمل الشرعيين، كما يتعبد الله بترك ما يحرم شمه كالطيب المغصوب، أو طيب النساء الأجنيات، أو الطيب في الإحرام، أو تعمد شمِّ الروائح الخبيثة السيئة التأثير على النفس، وترك ما يكره شمه، كطيب الظلمة وأصحاب الشهوات.

ويتعبد الله باللمس، فيلمس ما يحتاج إليه للتمييز بين الحلال والحرام، وما يجب عليه لمسه للإعفاف والإحصان، وما يحتاجه من ثوب أو بقعة للصلاة؛ ليستبين صلاحيته الشرعية، وما يستحب لمسه في هذا السبيل أيضًا، كما يتعبد الله بترك لمس ما حرمه الله من النساء الأجنيات والمردان، ومن سائر الأعيان المحرمة، ممّا يغري لمسه على تناوله، وترك اللمس المكروه، كلمس ما حرم الله حال الصيام أو الإحرام أو الاعتكاف ونحوه.

ويتعبد الله تعبدًا صحيحًا بجارحة اللسان، وذلك بإشغاله دائمًا بذكر الله، وما والاّه من الكَلِم الطيب، وقراءة القرآن وكتب الحديث والتفسير للقرآن، والشروح للسنة المطهرة، وما استنبط من فقههما، وسائر الكتب المعول عليها، والمؤلفة في خدمتها، وما يحصل به زيادة فهمها من فنون العلم، مُجتنبًا كل ما يصدّه أو يبعده أو يشغله عنهما، أو يزهده فيهما، مبغضًا لذلك بغضًا تامًا، كما يكون

مُجْتَنِباً ومُبْغِضاً ومُنَابِذاً ومَعَادِياً لكلِّ ما يُناقِضُهُما من كلِّ فنٍّ وكتاب، فلا يقرؤه ولا يضيّع فيه ثانية من دقائق عمره النَّفيس، إلّا لحاجة الردِّ عليه، ودفع شبهات أهله ممّن هو قادر على ذلك؛ لتسلّحه بوحى الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ويكون أيضاً حافظاً لسانه من فضول الكلام، ومبتعداً عن قول الزُّور، والدّد في الخصومة، واللّمز والاغتياب ونحوه ممّا يهوي بصاحبه في النار سبعين خريفاً، أو يكبه في النار على وجهه، كما حذر منه النبي - صلى الله عليه وسلم - وينشغل عن ذلك بالكلم الطيب من الذّكر، والأمر بالمعروف، والحض على الخير والصدقات، والإصلاح بين الناس، وتأليف قلوبهم، وجمعهم على الطاعة، ونحو ذلك، مما يجعله قائماً بعبودية الله بضبط لسانه غاية الإمكان، متوقّياً من آفاته.

ويكون بليغاً جريئاً، حديد اللسان في مقاومة أهل الباطل ومناظرتهم، ودفع باطلهم بحجة البياض؛ ليكون مجاهداً لله تعالى في هذه الجارحة، شاكراً له على إنعامه بها شكراً حقيقياً، مستعيناً بها على نيل رضاها؛ الذي هو غاية أمانى المسلمين المؤمنين؛ فإن بطش اللسان قد يكون أعظم أثراً وأكبر فائدة من بطش اليد، كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - في شعر حسن - رضي الله عنه - ((والله، لشعرك عليهم أشد من وقع السهام في غلس الظلام)) [3].

ثم يكون من جهة أخرى مسخّراً للسانه بالدعوة إلى الله على بصيرة، وبحكمة وحسن بيان جذاب يعرض به الإسلام عرضاً ملائماً لكل بيئة؛ ليحقّق شكر الله على نعمة اللسان، ويكون من ورثة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - الداعين بدعوته، فينال حظاً من رفعة الذّكر، والصلوات المباركة، والوعد الحسن من الله في الدنيا والآخرة، ويكون من الصادقين مع الله، ولا يخرس لسانه عن النطق الحق.

ويتعبد الله - سبحانه وتعالى - بجارحتي اليدين والرجلين، فلا يبطش بيديه إلّا لله وفي الله، حسب مرضاة الله، فيعمل بيديه وفق مرضاة الله، ما يعينه على حمل رسالته، والتقوى على عبادته، من الكد والكسب في الحلال، واكتساب المال من طرقه المشروعة، وتكسب بهما ما يعينه على الواجبات من الإنفاق الواجب، وأداء الدين الواجب، واكتسب ما لا يحصل له أداء أركان دينه إلّا به، بأدلا جهده في صيانة وجهه عن السؤال، أو التقصير بالمفروض من نفقة واجبة ونحوها.

كما يبطش بها في الجهاد لإعلاء كلمة الله، وقمع المفترى عليه، وتوسيع رُقعة الإسلام، وردع من حاول الصّد عن سبيل الله بأي طريقة، ويبطش بهما في إقامة حدود الله، وتأديب من يستحق التأديب، حسب أصول الشريعة، بحيث لا تأخذه الرأفة في التهاون بها أو إسقاطها، بل يعتبر الرحمة في إجرائها وإقامتها كما أمر الله بها، ويبطش بهما أيضاً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذا استلزم الإنكار ذلك؛ ويستعملهما فيما يستحب إشغالهما به من الإحسان إلى المسلمين، والقيام بمصالحهم أخذاً ورداً، وإعانة مُحترَف، وتعليم صانع، أو إصلاح آلة فاسدة أو تحريكها، أو عمل لأخرق، أو إعانة حامل، أو رفع منه، أو إعانة على سقي، أو إمساك دابة، وغير ذلك من المعونات المستحبة أو الواجبة.

وكذلك كتابة ما يحتاجه المسلمون في معاملاتهم، وضبط شهاداتهم، ونحو ذلك، ويكون مُجْتَنِباً كلَّ بطش حرام، ومُبْغِضاً له كما يبغضه الله ويحرّمه، فلا يقتل النفس التي حرّم الله إلّا بالحق، ولا يعتدي عليها أبداً لأيّ حظٍّ من حظوظ نفسه، أو رغبة من رغباتها، ولا يضرب من لا يحل له ضربه، ولا يطمع في مال معصوم بأي وسيلة من وسائل الاستلاب، ولا يشغل يديه بالألعاب المحرّمة من أنواع الميسر ونحوها مما هو شبهه بالنرد والشطرنج، أو خلف عنهما، ولا بالمكروه من الألعاب، إلّا ما يصلح منها للتدريب على الجهاد، وتقوية الأعصاب، بنية صادقة لذلك.

ولا يكتب بيديه ما لا تجوز كتابته من البدع والخرافات، ونظريات الملاحدة والزنادقة، والشعر المُحرّم المشتمل على الأوصاف المثيرة للغرائز، أو مدح الخمر والإغراء بأي محرّم، كما لا يكتسب باطلاً، أو أحكاماً جائرة، أو شهادات مزورة، أو سباً أو وشاية، أو كل ما فيه ضرر على المسلمين وخدمة لأعدائهم، سواء في السلم أو الحرب، فلا تمتد يده إلى شيء من ذلك ولا إلى رشوة، ولو بطريق هدية؛ لأن الهدايا إلى العمال والمسؤولين في الدولة غُلُول [4]، كما حذر منه النبي - صلى الله عليه وسلم - في حادثة ابن اللّتيبة [5]، بل يطهرها من جميع ذلك؛ ليحقّق عبودية الله بهما، ويكون شاكراً لله على إنعامه بهما، باستعمالهما فيما يرضيه.

ويلاحظ التزام عبودية الله في رجليه، حاصراً مشيه بهما في طاعته ومرضاته، فيسعى بهما إلى إقامة الصلاة في الجُمع والجماعات، وإلى بذل الزكاة والحج والطواف، وإقامة المناسك وتعظيم شعائر الله، واكتساب للقيام بالواجب، والسعي في الجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإلى البطش الواجب والمندوب، وإلى الإصلاح بين الناس، وصلة الأقارب، وبرّ الوالدين، وزيارة الإخوان في الله من الأحاب في الدين، وعيادة المريض، وتشجيع الجنّاة، والمشي إلى مجالس العلم والذّكر، وكل ما فيه تنفيذ لأمر الله،

وَيَسْعَىٰ بِهِمَا لَا كِتْسَابَ الْمَالِ مِنْ طَرَفِهِ الْمَشْرُوعَةِ، وَاسْتِثْمَارَ خَيْرَاتِ الْأَرْضِ بَنِيَّةً صَالِحَةً لِلَّهِ؛ لَتَكُونَ جَمِيعَ حَرَكَاتِ رَجُلَيْهِ عِبَادَةً لِلَّهِ، فَيَكُونُ شَاكِرًا نِعْمَتِهِ عَلَيْهِ بِهِمَا، فَلَا يَمْتَطِي بِهِمَا أَيْ مَرْكُوبٍ إِلَّا لَغَرَضٍ مِنْ هَذِهِ الْأَغْرَاضِ، وَبِنِيَّةٍ حَسَنَةٍ، وَيَر_اقِبُ اللَّهُ فِيهِمَا، فَيَكْفُهُمَا عَنْ الْمَشْيِ أَوْ السَّفَرِ لِمَا لَا يَرْضِيهِ، فَضْلًا عَنْ مَا يَغْضِبُهُ مِنَ السَّعْيِ إِلَىٰ مَعَاصِيهِ، فَإِنَّ الرَّجُلَ السَّاعِيَةَ إِلَىٰ الْمَعَاصِي هِيَ رَجُلُ الشَّيْطَانِ، وَكُلُّ مَا يَمْتَطِيهِ الرَّجُلُ إِلَىٰ مَعَاصِيَةِ اللَّهِ فَهُوَ مِنْ رَكَبِ الشَّيْطَانِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإِسْرَاءُ: 64].

كَمَا أَنَّ كُلَّ مَا كُؤِلَ أَوْ مَشْرُوبَ مُحَرَّمٍ، أَوْ تَكَسَّبَ لَا يُقْصَدُ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ، وَكُلُّ ذُرِّيَّةٍ لَا يُوْجِّهُهَا وَلاَ أَمْرُهَا إِلَى اللَّهِ، بِالتَّوْبَةِ وَالتَّوْبَةِ وَالتَّوْبَةِ الشَّرْعِيِّينَ، فَهُوَ مِنْ شَرِكِ الشَّيْطَانِ، وَكُلُّ هَدَفٍ إِلَىٰ مَا سِوَى اللَّهِ فَهُوَ مِنْ أَمَانِي الشَّيْطَانِ وَغُرُورِهِ.

(انتهى - بعون الله تعالى - تخريجُ الكتاب، والتعليق عليه، في يوم الاثنين 1415/2/3 هـ)

هني: الهن: من أَلْفَاضِ الكُنَايَاتِ، وَكَثِيرًا مَا يُطْلَقُ عَلَىٰ مَا يَسْتَحْيَا مِنَ التَّلَفُّظِ بِهِ، وَالْمُرَادُ بِهِ: الْفَرْجُ.

[2] أخرجه الترمذي برقم: (3487) في الدعوات، باب: الاستعاذة من شرِّ السَّمْعِ، وأبو داود برقم: (1551) في الصلاة، باب: الاستعاذة، والنسائي: (259/8) في الاستعاذة، باب: الاستعاذة من شرِّ السَّمْعِ والبصر، والحديث حسن كما ذكره الترمذي.

[3] لم أجده بهذا اللفظ فيما لديَّ من مراجع، وإنَّما وجدته بألفاظ متقاربة، تدلُّ على معني الحديث في مُنافحة حَسَّانَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَتَأْيِيدِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَتَشْجِيعِهِ لَهُ، وَبَيَانِ أَثَرِ شَعْرِهِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، مِنْهَا مَا أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ بِرَقْمٍ: (2486) فِي الْفَضَائِلِ، بَابُ: فَضَائِلِ حَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بَلَفْظًا: «أَهْجُ قَرِيْشًا؛ فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْهِمْ مِنْ رَشَقِ النَّبْلِ»، إِلَى قَوْلِ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -: فَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ لِحَسَّانَ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ لَا يَزَالُ يُؤْيِدُكَ مَا نَافَحْتَ عَنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ».

[4] غُلُوْلًا: أَيِ: الْخِيَانَةِ وَالسَّرَقَةِ مِنْ أَمْوَالِ الْغَنَائِمِ أَوْ مَالِ الدَّوْلَةِ.

[5] ابْنُ اللَّتْبِيَّةِ: اسْتَعْمَلَهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى الصَّدَقَةِ، فَلَمَّا قَدِمَ قَالَ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا أُهْدِي إِلَيْكَ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَحَمَدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى الْعَمَلِ مِمَّا وَلَانِي اللَّهُ، فَيَأْتِيَنِي فَيَقُولُ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيْتُ لِي، أَفَلَا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ إِنْ كَانَ صَادِقًا؟ وَاللَّهُ لَا يَأْخُذُ أَحَدًا مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلَّا لَقِيَ اللَّهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَا أَعْرِفَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ يَحْمِلُ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءً، أَوْ بَقْرَةً لَهَا خَوَارٌ، أَوْ شَاةً تَبْعِرُ»، ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ حَتَّى رُئِيَ بَيَاضُ إِبْطِيهِ؛ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ، هَلْ بَلَغْتَ؟»، هَذِهِ الْحَادِثَةُ أَخْرَجَهَا الْبُخَارِيُّ: (306/12) فِي الْحَيْلِ، بَابُ: احْتِيَالِ الْعَامِلِ لِيُهْدَى لَهُ، وَمُسْلِمٌ بِرَقْمٍ: (1832) فِي الْإِمَارَةِ، بَابُ: تَحْرِيمِ هَدَايَا الْعَمَالِ.

فلا نامتُ أعين الجبناء من عمّال الدُول وموظّفيها والمسؤولين عنها، فالرّشا قد عمّت، والغلول أصبح ظاهرة متفشّية، ألا فليتنق الله هؤلاء الناس في وظائفهم وأعمالهم، قبل أن يحل غضب الله عليهم في الدنيا قبل الآخرة، والله المُستعان.